بطولة ملك

(٤)

تَحَالُفُ الخُصُومِ

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثُّنَيّان

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثُنيّان، عبد العزيز بن عبد الرحمن

تحالف الخصوم. - الرياض.

٢٤ص، ١٧ X ٢٢ سم (سلسلة بطولة ملك؛٤)

ردمك: ٨-٤٧٥-٢٠-٩٩٦٠

١- عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ملك السعودية

٢- السعودية - تاريخ الملك عبد العزيز ٣- كتب الأطفال - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٩٥٣،١٠٥ ١٨/٤٠٨٥

ردمك: ٨-٤٧٥-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٨/٤٠٨٥

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

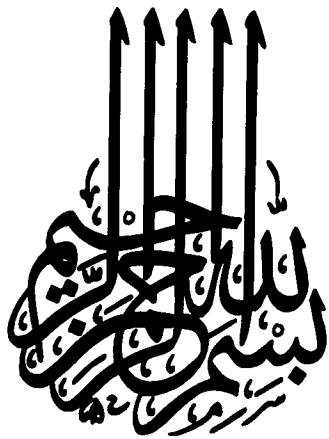
بسم الله الرحمن الرحيم

تَحَالُفُ الخُصُومِ

جلسَ أحدُ الفلاحينَ ذاتَ يوم يستظلُّ بالعَمَّة النخلة، وينظرُ إلى ثمارها اليانعة، ويتأملُ القولَ المأثورَ: أكرموا عمَّتكم النخلةَ.

إنها حقاً عمّةٌ وسيِّدةٌ؛ إن ثَمَرها زادُ المسافرين، وتمرها غذاء المقاتلين.

إنها رمز الخير والعطاء، وشجرة نجد، حيث الكرمُ والإباءُ.

وهزَّ الرَّجلُ النَّخلةَ فتساقطَ الرُّطبُ الجَنيُّ، فأكل وشربَ، وشكَر الله أن قرَّتْ عينُه بالبطلِ الملك عبد العزيز.

وقالَ الرجلُ: هذا الملك يُوحِّدُ الجزيرةَ، ويلملمُ الوطنَ، ماذا أقدمُ وماذا أعملُ؟

إنه طُولَ وقته فوقَ سرج حصانه، وعلى ظَهر راحلته، يتنقلُ ويجالدُ، ويقودُ الفرسانَ، ويسبقُ رجالهَ الأشاوسَ. وينطبق عليه قول المتنبي:

أنتَ طولَ الحياة للرُّوم غازٍ

فمتَى الوعدُ أنْ يكونَ القفولُ؟

إن عبدالعزيز ورجاله بحاجة للزاد والغذاء، إن هؤلاء العمّات المائة سوفَ أقطفُ طلعَها النضيدَ، وأجني ثمرَها الهضيمَ، وأقدِّمُه عوناً ودعماً، وأبذلُه أرَيحيَّةً ورضًا.

وظلَّ الرجلُ مستغرقاً في أفكاره، لاهياً بآماله، طرباً بانتصارات البطل، فرحاً برجعة الفارس، داعياً للملك عبد العزيز بالتوفيق وطول العمر.

وجاء ابنه، فقالَ: أبتاه، هيَّا؛ إن لدينا ضيفاً قادماً.

قال الأبُ: مَن هو؟ ومن أين؟

قالَ الابنُ: إنه فلانٌ.

قال الأبُ: مرحباً به، إنه من المُقاتلينَ مع الملك البطل. هيّا نُحادثْه ونُكرمْه، هيا نسمعْ أخبارَه. ورحَّبَ الرجلُ بالضيفِ وأطراه.

قال الضيفُ: جئت بأخبار تَسرّ وعُدت بأنباء تُطربُ.

قال الأبُ: كيفَ عبدُ العزيز بعدَ انتصاره في روضة مُهنّا ومقتل عبد العزيز بنِ رشيدٍ، ذلك الخَصم القويِّ؟

قالَ الضيفُ: لقَد حَمدَ اللهَ وشكرَه، وازدادَ ثقةً بأن الوطنَ سيتوحدُ، وأن مُلكَ الآباءِ والأجدادِ سيعودُ.

قالَ الأبُ: ولكنَّ هناك خصوم يترقبون، وحولَه حسادٌ، وعن يمينه وشماله بُغاةٌ، أعانَه الله عليهم، ونصرَه ووفقَه.

قالَ الضيفُ: إنه تصالحَ، واتفقَ مع متعب بن عبد العزيز بن رشيد على انحصار إمارة آل رشيد في حائل وجبل شمّر، وإنَّ القوات التركيةَ التي كانتْ تناصرُ ابنَ رشيد رحلتْ إلى غير رجعة، وإن هيبتَه عَظُمتْ، وسلطتَه امتدَّتْ.

قالَ الأبُ: أوَتَظُنُّ أنَّ الأعداءَ سيقبلونَ؟

إنّ الأفَاعي وإنْ لانَتْ مَلامسُها

عندَ التقلُّبِ في أنيَابها العَطَبُ

قالَ الضيفُ: إن عبدَ العزيز صقرٌ يقظٌ، وليثٌ فَطنٌ، إنه يعرفُ الناسَ بعيونهم، ولقد صدقَ الشاعرُ محمودُ الورَّاق حينَ قالَ:

إنَّ العُيونَ على القلوب شواهدٌ

فَبَغيضُها لكَ بَيِّنٌ وحَبيبُها

وإذا تَلاحظَت العيونُ تَفاوضَت
وتحدَّثت عَمَّا تُجِن قُلوبُها
يَنْطِقْنَ والأفواهُ صَامتةٌ فما
يَخفَى عليك بَريئُها ومُريبُها

وإنه يقالُ: ثلاثٌ مَن كُنّ فيه استكمل الإيمان: منْ إذا غضب لم يُخرجْه غضبُه عن الحق، ومَنْ إذا رضيَ لم يُخرجْه رضاهُ إلى الظُّلم والباطل، ومَنْ إذا قَدَر لم يتناولْ ما ليسَ له.

وذلكَ عبدُ العزيز عرَفناه بهذه الصفات.

وطالَ سمرُ الرجال، وتداخلَ حوارُهم، وحمدُوا الله على ما تحققَ، وشكروه على ما هم فيه من أمن وعدل.

فقدْ صارَ الملكُ عبدُ العزيز مرهوبَ الجانب، وأصبحَ شرعُ الله يُقام على الصغير والكبير، وباتتْ الأحكامُ الشرعيةُ تنفَّذُ بسرعة على كلِّ أحدٍ.

وهكذا صار الناس في مجالسهم يتحدَّثون عن البطل، وفي

خلواتهم يُناجون أنفسهم عن العون والمؤازرة .

إنه الحبُّ والوفاءُ، والعدلُ والرضا .

وتناقلَ الرواةُ أخبارَ بطولته، وتهادَى الركبانُ قصصَ عبقريته، وتخابرتِ البوادي بشجاعته، وقرأ الخصومُ أخبارَ انتصاراته .

وغاظ ذلك الحاقدين، وتآمَرَ المتربِّصون، وانزعجَ الطامعون، وأقلقَ الصغارَ ممن يزعمون الإمارةَ، وينشُدُونَ الزعامةَ، وفحَّت الأفاعي، وتآلبَت الذئاب، واتفقَ الخصومُ.

وعاشَ البطلُ سنوات خمساً ما بين ١٣٢٥هـ - ١٣٣٠هـ/ ١٩٠٧م - ١٩١٢ وهو متنقلٌ ما بينَ هذه النار يطفئُها، وتلك يُخمدُها، وكانتْ سنواتٍ حرجةً قضاها، ولسانُ حاله يردِّد قول المتنبي :

وسوى الرُّوم خلفَ ظهرك رُومٌ   فعلى أيِّ جانبيْك تَميلُ

فقد اتفقَ أحد زعماء البادية على العصيان والتمرد، وحالف أمير حائل سلطان بن حمود العُبيد من آل رشيد، الذي تولَّى إمارة حائل بعد مقتل متعب بن عبد العزيز بن رشيد، ونقضَ الصلحَ الذي كانَ معَ الملك عبد العزيز .

وكاتَبَ ابنُ رشيد أميرَ بُريدةَ محمدَ أبا الخيل، وحَرَّضَه على التمرُّد والعصيان على الملك عبدِ العزيز، واستجابَ للمكاتبةِ وخرجَ عن الطاعةِ، ووالى سلطانَ بن حَمود بن رشيد.

وكانت الأحساءُ خاضعةً للسلطات التركية، وهي مدينةُ التمور والتجارة، وبها ميناءُ العقير. وكانت القوافلُ تغدُو إليهَا وتروحُ، من نجد ومن غيرها، فانضمَّ الوالي التركيُّ هناك للمناوئين، وشاركَ في الخصومة، وردَّ القوافلَ القادمةَ من نجد، ومنعَها نقلَ التُّمور والأرزَاقِ؛ وذلكَ للتضييقِ على جيش الملك عبد العزيز وتجويعه.

إنه حصارٌ اقتصاديٌّ، وإنهاكٌ منْ هنا وهناك. إنها أحداثٌ جسامٌ، ومواقفُ تهزُّ الشجعانَ، ويضطربُ لها الدُّهاةُ، ويَحارُ معها السُّراة.

ويعلمُ الملكُ بهذه الاتفاقات، ويعرفُ بهذه المؤامرات، ويبصرُ هذه العداوات، ويبدأ بالعلاج، ويسرعُ إلى القصيم ليتأكَّدَ، ويتحقَّقَ من موقف أمير بُريدة، ويُظهر أنه ذاهبٌ إلى هناكَ لزيارة زوجة له موجودة في بريدةَ، ويصلُ إلى مشارف القصيم، ويرسلُ إلى شُلهوب، أحد رجاله في تلك البلدة يخبرُه بقدُومه، ويعسكرُ في قرية الشِّقة الواقعة شمالَ غربِ بريدةَ.

وتصله شائعة بأن ابن رشيد هاجمٌ عليه، ويخرج هو نفسُه يتحسَّسُ الأخبارَ، ويتأكدُ من الأنباء، ويتضحُ له أن الأمرَ شائعةٌ، ولا يوجد، ما يشغلُ البالَ، ويعودُ إلى المعسكر، ويستعدُّ لدخول مدينة بريدة؛ ليطمئنَّ على حقيقة الأمر، وما هو موقف أميرها؟ ويزور زوجته.

ويلبسُ البطلُ أفخرَ ما لديه من الثياب، ويرتدي عباءةَ الوبَر الزاهية ويتوجَّه والطيبُ يفوحُ، والعطرُ يتطايرُ، ويسري تحتَ جُنَح الليل يحفُّ به ستةٌ من الخدم، ولكنه عندما دنا من بريدة التقى رسولاً بعثه شلهوب ليقولَ له: إن محمدَ أبا الخيل أميرَ بريدةَ أقفلَ القصرَ وهو متأهِّبٌ للحربِ.

وتتأكَّدُ الأخبار، وتصدُقُ الروايةُ، وتنكشفُ الحقيقةُ.

ويتوقّفُ البطلُ، ويلوي عنانَ حصانه، فلا يستطيعُ السيرَ إلى بريدةَ، ثم إن معسكره يبعدُ مسافةَ ثلاثِ ساعاتٍ . . فإلى أينَ؟

وكانتْ ليلةً ممطرةً، اشتدَّ ظلامُها، وهبَّت رياحُها، والملكُ الظافرُ لم يستعدَّ لهذا الموقفِ، وهو في كاملِ زينته وبهائه.

إنها الأقدارُ والمواقفُ التي لا تنسَى، فهذا اليومُ فيه من الذكريات التي لم تفارقْ خاطرَ الملك عبد العزيز.

ويعودُ القهقرَى، ويشتدُّ المطرُ، ويسمعُ نباحَ كلب في الطريق فيؤمُّ الصوتَ، وإذا بيْتٌ من الشَّعر، فيترجَّلُ أمامَه ينشُدُ الملجأ من الريحِ والمطرِ.

وكانَ البيتُ خيمةً صغيرةً طولُها ستُّ أذرع، وعرضُها نصفُ ذلك، وفي داخلِ الخيمة طائفةٌ من البشرِ، وكمٌّ من الماعزِ.

وتكلَّمَ عبد العزيز: يا أهلَ البيت، نحنُ ضيوفكم.

فأجابوه، ولم يعرفوه؛ فالظلامُ دامسٌ، والليلُ أليَلُ، والمطرُ يتساقطُ: مَنْ؟ أهلاً ومرحباً. إنَّ البَيتَ والليلَ والحالَ يسوِّدونَ الوَجهَ.

ولَم يقبَلوا غيرَ واحد من الضيوفِ، فدخلَ عبدُ العزيز، وبقيَ رِفاقُه خارجَ الخَيْمة.

ويجدُ في الخيمة الصغيرة الحقيرة عشرة أشخاص كبار وصغار، وفيهم عجوزٌ مريضةٌ، وشابّ مجنونٌ.

ويجلسُ البطلُ قربَ الباب وقد بللَت الأمطارُ ثيابَه، ويضمُّ يديه إلى جَنبيه، وتثبُ صغارُ الأغنام على كتفيه، وتتبولُ الماعزُ أمامَه، ويزدادُ سقوطُ الأمطار، وتُصَبصبُ الخيمةُ الماءَ وكأنّها تبكي لحاله، وتئنُّ المريضةُ، ويصرخُ المجنونُ، ويولولُ الكلبُ، ويصيحُ الصغارُ. إنه مشهدٌ بائسٌ، ولكنها الأيامُ تأتي بالعَجَائب.

والويلُ لكَ يا أمـيـرَ بريـدة، يا ناقض العـهـد، يا منكرَ المعـروف والجَميلِ.

ويخرجُ من هذا الخباء الحزين، ويتركُ هذه الأسرةَ الرثةَ، ويمتطي صهوةَ جواده، وينطلقُ إلى القرية التي فيها معسكرُه، وحينَ وصلَ وجدَ الأمطارَ قد أعلنت الحربَ، فمنازلُ القريةِ تتساقطُ من شدةِ الرياحِ والأمطارِ.

ويصلُ وقد أضناه السهر، وأنهكَه التعبُ، وينزلُ من فوق حصانه وقد طمرَ الوَحلُ ملابسَه الزاهيةَ، ويتوجَّهُ لأمير البلدة، ويجدُ لديه غرفةً سليمةً، وفيها نارٌ موقدة، فيحمدُ اللهَ ويشكرُه.

وبعـدَ أن ارتاحَ، وجـفَّفَ مـلابسَـه، وأزالَ عنهـا الأوحـالَ ركبَ حصانَه، وتوجَّه إلى بريدةَ مرة أُخرى، ولما وصلَ القصرَ وجدَه مقفلاً. وطرق البابَ، فَسُئِل: من أنتَ؟ فأجاب: أنا ابنُ سعود.

ولم يسَعْ مَن كانوا بالداخل إلا أن فتحُوا البابَ. وعندمَا أقبلَ أميرُ بريدَةَ أبا الخيل رآه الملكُ عبدُ العزيز يرتعدُ خوفاً، فقال له متجاهلاً: ما بالُك ترتعدُ، قبَّحَ اللهُ وجهَك؟

قالَ: لقد افترى الناسُ عليَّ، هم يكذبونَ ـ والله ـ فيما يقولونَ.

فقاطعَه عبدُ العزيز ناهراً إيَّاه: اسكتْ يا أحمقُ، ما بيَّنَ أمْرَك إلا أنتَ.

ولم يقلْ أكثرَ من ذلك.

وعرَفَ حقيقةَ الأمور، وتحقَّقَ من عداوة رئيس تلك القبيلة، وأنه حالف ابن رشيد، فأسرَع إلى محاربتهما وتأديبهما، وصالحَ أعداءَه في بريدةَ، وعفا عن أميرها محمدِ أبا الخيل.

إنها العظمةُ والدهاءُ، يصالحُ هذا، ويؤدِّبُ ذاك، يداوي هذا الجرحَ، ويضمدُ ذاك، إنه كبيرٌ يغفرُ الزَّلات، ويزنُ الرجالَ.

عقلٌ وحِلمٌ، وذكاءٌ وفطانةٌ، وبُعْدُ نظرٍ، وتهدئةُ جراحٍ.

وبعدَ أن صالَح أهلَ بريدةَ وعفَا عن زعمائها توجَّهَ لأولئك المنشقِّين الذين شذُّوا عن الطاعة، وهاجمَهم، وقامَ بكبحِ جماحِهم وأدَّبَهم، وأعادَ النافرين، وأقالَ المذنبين.

ثم توجَّهَ الملكُ عبدُ العزيز إلى ابن رشيد الذي نقضَ العهدَ، وصارَ يجمعُ الخصومَ، وأغارَ على خيامه، وظَلَّ في كَرٍّ وفرٍّ معَ خصمِه،

وتناوَشَ الفريقانِ، وتكرَّرَ الصدامُ بينَ الطرفينِ.

وفي إحدى المرات كبا حصانُ الملك عبد العزيز، فوقعَ عنه، وانكسرَ عَظمٌ في كتفه الأيسر، وأغْميَ عليه.

رحمَكَ اللهُ أيُّها البطلُ؛ كَم لاقيتَ الأهوالَ! وكَم تعرَّضْتَ للأخطارِ!

وثبتَ رجالُ الملك عبد العزيز، وتصادَمُوا مع المناوئينَ، حتى كتبَ الله لهم النصرَ، وطاردوا خيلَ المتآمرين التي فرَّتْ إلى الطَرفية الواقعة شمالَ بريدةَ، وتبعَهم الملكُ الظافرُ، وألحقَ بهم الهزائمَ، واستولَى على البلدة، وعسكرَ فيها.

ولم يحفظْ أبا الخيل العهدَ، ولم يرعَ الوُدَّ، فسارعَ إلى ابن رشيد وانضمَّ إليه، واتفقَ معَه على مهاجمة الملك ليلاً في الطرفية، وعلى مفاجأته هناك، وانضمَّ إليهم بعضُ العصاة من أبناء البادية، وكانوا يرجُونَ بهذا التحالُف وهذه المباغتة هزيمةَ الملكِ عبدِ العزيزِ وإلحاقَ الخسائرِ به وبأتباعِه.

وكأنَّ المَلكَ مِمَّنْ يرَى عَن بُعْد، وكأنه ممَّنْ يسمعُ من مسافة؛ فقد

حذَّرَ رجالَه من المباغتة، ولم ينَمْ تلكَ الليلةَ من الألمَ والمعاناة.

وكانَ الألْمَعيُّ يتوقّعُ هجومَ المتحالفين، فدعا قادةَ الجَيش وهو المصابُ في كتفه، وقالَ لهم: «إن ابنَ رشيد ومن يُناصره من أهل بريدةَ هاجمون عليكم هذه الليلةَ، فتأهّبوا وكونوا متيقِّظين، بُثُّوا الحرسَ والكشّافة في الطرقِ، وحصِّنوا القصرَ». وصدقَ ظنُّه، ووقعَ ما جزمَ به.

ذكرَ صاحبُ العقْد الفَريد أنَّه قيلَ لعَمرو بن العَاص: ما العقلُ؟

قال: الإصابةُ بالظنِّ، ومعرفةُ ما يكونُ بما قد كانَ. وقالَ عمرُ بنُ الخطاب: مَن لم ينْفعْه ظنُّه لم يَنْفعه يَقينُه.

وبعدَ منتصف ليلَة الخامس من شعبان سنة ١٣٢٥هـ، الموافقة عام ١٩٠٧م أغارَ المتحالفونَ، ونشبت المعركةُ، ودامتْ إلى الفجر. وكانَ الملكُ عبدُ العزيز يقودُ المعركةَ ويدُه قد لفَّها وربطها في عنقه.

يقولُ الريحاني: هجمت الباديةُ من جهة، وهجمَ أهل بريدةَ من الجهة الأخرى، وهم يبغون احتلال القصر.

أمّا ابنُ رشيد ورجالُه فتقدَّموا هادئين ليباغتُوا السعوديينَ، وعندما أطلقت البنادقُ نيرانَها هبَّ العسكرُ كلّه للقتال الذي استمرَّ حتى الفجر،

فبدتْ إذ ذاكَ المياهُ الجاريةُ بينَ النخيل وقد احمرت بدم القتلى .

«صبحناكُم لا صبحَتْكم العافيةُ» .

هذه هي الكلمة التي كان يردِّدُها السعوديونَ عندمَا تتبَّعوا الرشيديّين المنهزمين .

وقُتِل في هذه الوقعة التي تدعى (وقعة الطرفية) ثلاثونَ من رجالِ الملك عَبد العزيز ، وثلاثُمائة من رجال ابنِ رشيد .

وبعدَ هذه المعركة عادَ إلى بريدةَ من سَلموا من أهلها ، وفرَّ ابنُ رشيد وباديتُه إلى حائل ، وقامَ الملكُ عبدُ العزيز بتأديب بعض المناصرين لهؤلاء المتحالفين ، ثمَّ عادَ إلى الرياض . وكانَ يعلمُ أن أكثرَ أهل بريدةَ ليسُوا على وفاق معَ أميرهم محمد أبا الخيل ، ولكنَّهم يخشَونه ، ولهذا عادَ مرةً أخرَى إلى القصيم ، وحاصرَ بريدةَ ، واتصلَ به بعضُ أهلها ووعدُوه بأن يفتحُوا له بابَ السور وقتَ صلاة العشاء .

وقبلَ الهجوم خطبَ -رحمهَ الله- في الجيش ، وقالَ لهم : إنا هاجمون على هذا البلد ، احذرُوا أن تؤذُوا مَنْ لا يعترضونكم ، أو تُسيئوا إليهم بشيء ، حاربُوا مَنْ يحاربُكم ، وسالموا مَنْ سالَمكم ، أمّا البيوتُ فلا تدخلُوها ، وأمّا الحريم فمن اعتدى عليهِنَّ فيدي عليه .

وَصيَّةٌ عظيمةٌ، وأمْرٌ أعظمُ، تَحذيرٌ وتنبيهٌ، وتخويفٌ وتهديدٌ، رفقٌ ورعايةٌ، وهدوءٌ وعنايةٌ . . لا تدخلُوا البيوتَ، إياكم والأعراضَ، الويلُ لِمَنْ مَسّ امرأةً، الموتُ لمن قرب مُخدَّرةً[1] .

إنه الإيمانُ والخوفُ من الله، إنه الشعورُ بعظمِ المسؤولية .

ومضَى الوقتُ، وما كادَ الناسُ يخرجُونَ من صلاة العشاء حتى فتحت المدينةُ أبوابَها، ودخلَ رجالُ البطل، وعلا الصياحُ في المدينة، وأسرعَ الناسُ إلى دورهم، وأغلقُوا أبوابَهم وخافُوا من المهاجمينَ، وباتتْ كلُّ أسرة تتوجَّسُ خيفةً وتخشَى سطوةَ المقاتلين .

ولكن القادمَ رجلٌ يخافُ الله، وفارسٌ يَغَارُ لحرمات الله، وعبدُ العزيز تدمعُ عينُه من خشية الله . إنه الأمانُ والسلامُ، إنه الخيرُ والوئامُ .

واشتبكَ جنودُ البطل برجال أبا الخيلَ، واستمرَّ القتالُ طوالَ تلكَ الليلة، وقتلَ عددٌ يسيرٌ من الفريقين: عشرةٌ من رجالِ أبا الخيل، وخمسةٌ من جنود الملك عبد العزيز .

وطوقَ رجالُ البطل القصرَ، وحاصرُوا الأميرَ ومَن معَه، وعرَف أبا الخيل أن لا قبَل له ولا حول له ولا قوة، فطلبَ الأمانَ والعفو .

(١) المُخدَّرة: الفتاة وقد استقرت في الخِدر .

واستجابَ الملكُ البطلُ، وعفا عن الجميع، وتمَّ الاستسلامُ، وكان ذلك عام ١٣٢٦هـ الموافق ١٩٠٨م.

إنه البطلُ، مُقيلُ العثَرات، ولقد صدق فيه قولُ محمد بن علي بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنهما: منْ حَلُمَ وقَى عرْضَه، ومن جادت كفّه حَسُن ثناؤه، ومَنْ أصْلح ماله استَغْنى، ومن احتملَ المكْروهَ كثُرتْ محاسنُه، ومَنْ صَبَر حُمد أمرُه، ومَنْ كظَمَ غيظَه فشا إحسانُه، ومَن عفا عن الذُّنوب كثُرت أياديه، ومن اتَّقى اللهَ كفَاه ما أهَمَّه.

واستأذنَ محمدُ أبا الخيل الملكَ في الذهاب إلى العراق، فأذنَ له ورحَّله إلى هناك، وعيَّنَ مكانَه في الإمارة أحمدَ السديري. ومنذُ ذلك التاريخ استقرَّتْ أوضاعُ بريدةَ وتوابعها تحتَ راية الملك عبد العزيز.

أمّا ابنُ رشيد فبعدَ سنة وسبعة أشهُر كانت المعركةُ الفاصلةُ بينَه وبينَ الملك عبد العزيز في مكان يدعَى (الأشعلي)، وهو كثبانٌ منَ الرمال بينَ القصيم وحائل.

حيث شرعَ الملكُ يتأهبُ للّقاء، وقسَّم رجاله إلى فرق ومجموعات، ووزَّعهم، وتحصَّن في النفود بفرْقَة قوية، وأمرها بالتريُّث وعدم إطلاقِ النارِ إلا عندما يرَوْنَه قَد بدأ وهجمَ.

وكان الملك عبد العزيز ألمعياً، وداهية حرب يعرف نفوس رجال البادية المناصرين لابن رشيد وأهدافَهم، ويعلم -رحمَه الله- أن الحربَ خُدعةٌ وتخطيطٌ وإدارةٌ، ولعلّه امتثلَ وصية المهَلّب بن أبي صفرة لبنيه: عليكُم بالمكيدة في الحرب؛ فإنَّها أبلغُ من النجدة.

ولهذا أخلَى خيامَ المعسكر، ثم أمرَ بألاَّ تُعقلَ الإبلُ التي غنمَها، وهو في طريقه من بعض القبائل، وأرادَ بذلك أن يُغريَ بها بادية العدو، فإذا هجمُوا وشاهدُوا الإبلَ شاردةً فسوفَ يتبعونَها ويسوقونَها غنيمةً، والإبلُ إذا سمعتْ إطلاقَ البنادق ولم تكنْ معقولةً فرّت هاربةً.

وانتصفَ الليلُ وهجمَ ابنُ رشيد على المخيم السعوديِّ الخالي من الجند فذهب الرصاصُ سدًى، وفرَّت الإبلُ، وانطلقَ رجالُ البادية وراءَها وهم يصيحون: الغنيمةَ الغنيمةَ. وهربَتْ كذلكَ تحتَ جنح الظلام باديةُ الملك عبد العزيز، ولعلهم شاركُوا في نهب الإبل .

وأرسلَ الملكُ عبدُ العزيز سريةً لمناوشة المهاجمينَ على المخيم السعوديِّ، وأمرَهم بالانسحاب بعدَ المناوشة وإظهار الهزيمة والفرار.

ونجحَت الخطةُ، فقد اندفعَ ابنُ رشيد ورجالُه وراءَ المنهزمين ووقعُوا في المصيدة، حيثُ هبَّ الملكُ عبدُالعزيز ورجالُه من النفود، وأغارُوا عليهم عندَ انبثاق الفجر، في ٥ من ربيع الأول من عام ١٣٢٧هـ، الموافق عام ١٩٠٨م، ودارت رحَى المعركة، وكُسرَ سلطانُ بن رشيد كسرةً لم تقمْ له بعدَها قائمةٌ، وعادَ إلى حَائل يُجَرجرُ أذيال الهزيمة، حيثُ قَتَلهُ أخواه سعودٌ وفيصلٌ لخلاف بينَه وبينَهُما.

أمَّا الملكُ عبد العزيز المقاتلُ الشجاعُ، والداهيةُ المحنَّكُ، الخبيرُ بالنفوس، العارفُ بالغرائز، الذي جمعَ العبقريةَ ـ فقد غزا بعدَ ذلك بعضَ العصاة، وعادَ إلى القصيم، فأمَّرَ فيه ابنَ عمِّه عبدَ الله بنَ جلوي، وانحدرَ بعدَ ذلك إلى الرياض.

ودارت الأيامُ، وعاشَ البطلُ أحداثاً متعددةً، يؤسسُ ويبني، ويؤدِّبُ عصاةً نفرُوا، ويعفُو عن جناة أساؤوا، ويُنجدُ الشيخَ مباركَ بن صباح الذي ما فتئ يطلبُ عونَه ومددَه، وهو المحارب المتنقلُ من هنا إلى هناك. ولكنهُ الدهاءُ والعقلُ، والحياءُ والخلقُ، والمروءةُ والوفاءُ، والصبرُ والتحملُ.

ويرسلُ أخاه سعداً، الذي لم يكنْ قد تجاوزَ السابعةَ عشرةَ من عمره

إلى قبيلة عتيبةَ يستنفرُ رجالَها لبعضِ أمورِه.

ويشاء الله أن يكون الحسينُ بنُ عليّ ـ حاكمُ الحجَاز في ذلكَ الوَقت نازلاً بالقويعية التي تبعد عن الرياض مائتي كم غرباً وذلك في رجب سنة ١٣٣٠هـ، الموافق عام ١٩١٢م.

ويصلُ الأميرُ سعدٌ إلى القويعيةِ، ويعلمُ بوجود الحسين، ويهمُّ بالعودة. وكانَ معَه أربعونَ رجلاً، ولكن بعد أن ركب حصانه، وقفلَ راجعاً مع رفاقه لحق بهم بعض الرجال، وقالوا للأميرِ: نحنُ خدامكم، قفُوا ولا تخافُوا.

ويصدقُهم سعدٌ ويعود، ولكنه يقعُ في الأسر، ويأتي المخبرُ إلى الملك عبدِ العزيز، ويقولُ له: أخوك أسيرٌ.

وكأنِّي بالملك وقد بلغه الخبرُ يزمجرُ ويتأوَّهُ، ويتذكَّرُ أخاه؛ فما أعزَّ الأخَ! وما أكرمَ الساعدَ! وكيفَ يقرُّ للملك قرارٌ وأخوه أسيرٌ؟! وكيف يلذُّ له المقامُ وأخوه سجينٌ؟!

إن الرزايا تهونُ، والبلايَا تتلاشَى، ولكنَّ الرزيةَ بسجنِ سعدٍ جارحةٌ.

وظلَّ الملكُ كالأسد الذي استُثيرَ، والرعد الذي تلاقَى، والبرق الذي تداخلَ، وزحفَ بجيشه إلى ضرما غربيّ الرياض، وتوالَتْ كتبُه، وتعاقبتْ رسلُه إلى شيوخ البادية الذين كانوا في تلك المناطق، يا ويلكم إن تركتُم الشريفَ يرحلُ بسعد، ويا سوأتكم إن مسَّ سعداً أذًى، إنها الحربُ بيني وبينكم، إنه الموتُ لا محالةَ، إنها النارُ المحرقةُ. وزحفَ الجيشُ، وتسارعت النذرُ.

ودبَّ الخوفُ في رجال البادية، وسادهَا الذعرُ، وولولتْ وارتاعَتْ، وصاحت نُذُرُها: جاءكم الأسدُ الصارمُ، وأقبلَ الموجُ المتلاطمُ، وزحفت النارُ المحرقةُ، فالنجاةَ النجاةَ، والفرارَ الفرارَ.

وتأمَّل أولئك الشيوخُ، وفكَّر رجالها، وأسرعوا إلى الشَّريف الحُسين وقالوا له: أين ترحلُ؟! وأين تسافرُ؟! ها هو عبدُ العزيز أقبلَ، ها هو الموتُ جاء، لا طاقةَ لَنا بحربه ولا قدرةَ لَنا على عَدائه.

وصرختْ نساؤهم، وتلفَّتَ صبيانُهم، وذُعرَ رجالُهم. وضَغطُوا على الحسين، وخوَّفوه وأنذروه وأقلقوه، وأحسَّ الحسينُ بالخطر، وأدركَ أن عبد العزيز لَن يتركَ أخاه، ولن يدَعَ عَضُدَه.

وكتبَ الحسينُ إلى الملك عبد العزيز يقولُ: إذا هجمتَ علينا تركنَا

لكَ المعسكرَ والخيامَ وعُدْنا بأخيكَ سعد إلى مكةَ، فيبقَى عندنا إلى أن تطلبَ الصلحَ.

وزادَ هلعُ الحسين؛ فهو يعرفُ سطوةَ الملك عبد العزيز، وعظمةَ شخصيته، وتعاظُمَ شأنه، وقوةَ جيشه، ويعرف أنَّه لن يتركَ أخَاه. ولهذا أرسلَ مندوباً من قبَله إلى الملك عبد العزيز يقولُ له:

«إن الشريفَ ليست له نيةٌ سيئةٌ، ولكنهُ يبغي تبييضَ وجهه معَ الدولة - أي تركية - ويريد منك ورقةً تنفعهُ عندهم ولا تضرّك، يريد أن تعترف ولو اسمياً بسيادة الدولة، وأن تعدَ بدفع شيء من المال سنوياً».

وتأمَّلَ الملكُ عبدُ العزيز الموقفَ، ووزنَ الأمورَ، وأمر كاتبَه أن يكتبَ أن بلادَ نجد تدفعُ للدولةِ ستة آلاف مجيديٍّ كلَّ سنة.

فلأجل سعد يهونُ كلُّ شيء، ولأجلِ سعدٍ نوافقُ على كلِّ شَيء، ثُمَّ إن القرارَ بيدنا. وكتبَ الورقةَ وأرسلَها.

وأطلقَ الحسينُ سعداً، وعادَ يحملُ الهدايَا.

ورجعَ الملكُ الظافرُ بأخيه، وانجلَت الغياهبُ، وباتَ يستعدُّ لجولة أخرَى للساحلِ الشرقيِّ.

فما قصةُ ذاك الإقليمِ؟ في الحلقة القادمة إيضاحٌ وحديثٌ